القيمة الدلالية لصوت المد في القراءات القرآنية

تاريخ تسلم البحث: ٢٠٠٩/٣/٥م تاريخ قبوله للنشر: ٢٠٠٩/١٢/١٦م

كمال أحمد المقابلة *

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز القيمة الدلالية لصوت المد من خلال التطبيق على القراءات القرآنية؛ ذلك أن علم القراءات يمثّل مصدرا من مصادر تفسير القرآن، والمد صورة من صور أداء القرآن وتجويده. ولعلّ المعيار الذي يضبط هذه الدلالة يتمثل في كمية المد التي يؤديها القارئ في موضع أو يقصر عن تأديتها في موضع آخر. وحتى تحقق الدراسة أهدافها جاءت في مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة: عرضت في المقدمة لمسوغات الدراسة، وعرّفت في التمهيد المدّ والمصطلحات المتعلقة به، وسأعرض في المبحث الأول للصوت والدلالة عند العلماء العرب، أما المبحث الثاني فجاء تحت عنوان: تعليل ظاهرة صوت المدّ، وسأعرض في المبحث الثالث لدلالة صوت المد في القراءات القرآنية، أما الخاتمة فسأثبت أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

Abstract

The main aim of this study is to highlight semantic value of the sound of prolongation via looking at its realization in Qur'anic recitations. As these recitations may be considered as one of the Qur'an interpretations sources on one hand, and the sound of prolongation represents a manner of Qur'anic reading performance, on the other hand. The study adapts prolongation quantity of reciters' performance as a criterion to govern the semantic value. To achieve the aim of this study, it is consistsed of a preface and three chapters. The preface is devoted to identify the notion and the term of prolongation, and clarify the related terms. The first chapter tackles significance of sound as has been described by ancient Arabs linguists, the second explores justification and explanation of sound prolongation phenomenon; and the third demonstrates the sound prolongation within the qur'anic recitationas. Finally, the study is concluded with its main results.

* أستاذ مساعد، مركز اللغات، جامعة آل البيت.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النبي العربي الأمين المبعوث رحمة للعالمين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، وبعد؛

يُعدُّ علم القراءات من العلوم الأساسية للقرآن الكريم، فبه يُضبط أداء القرآن كما أنّه يمثل مصدراً من مصادر تفسير القرآن، وإليه يعود الفضل في حفظ لغة القرآن كما سُمع عن النبي الكريم ﷺ.

والمدّ صورة من صور أداء القرآن وتجويده، وقد عرض علماء القراءات والتجويد لأنواع المد فذكروا نوعين: طبيعي وعرضي؛ فالطبيعي هو الذي لا تقوم ذات حروف المد دونه وهو ما يعرف عندهم بالقصر، أما العرضي فهو الذي يعرض زيادة على المد الطبيعي، وجعلوا له أنواعاً كثيرة؛ فمنه اللازم، ومنه العارض للسكون، ومنه المتصل والمنفصل ... وسيكون منطلق الدراسة النوع الثاني/ العرضي، لتنوع كمية المد فيه، وقد بيّن علماء القراءات والتفسير دلالة القراءات من حيث تغير الحركات والحروف من مثل: (مالك يوم الدين) و(ملك يوم الدين)، ومن مثل (يَصُدّون) و(يَصِدّون). ولكنّ أحداً لم يعرض لدلالة الصوت في القراءات القرآنية، وإن كان بعضهم قد تنبه إلى السبب المعنوي في أداء الأصوات لكنهم قدموا السبب اللفظي على المعنوي.

إنّ من يصغي سمعه إلى قارئ يقرأ القرآن الكريم يجد أن أحكام المدّ في القراءة بُنَيت على أساس صوتي صحيح ومنضبط. وهذا الانضباط في أداء صوت المدّ مع أنّه يقوم على سبب لفظي إلا أنّه لا يخلو من عامل معنوي، بمعنى أنه يحقق دلالة تنسجم مع كمية المدّ في الصوت، فعندما تقرأ كلمة (الطامّة) بمدّ متمكن لستٍّ درجات تدرك عندها استطالة في دلالة الطامّة فهي كبرى تأتي على كلِّ شيء، دلّ على ذلك كمية المدّ في ألف الطامّة. ولو أنك سمعت قارئاً لا يؤدي المد عند استحقاقه أو يمدّ في غير استحقاق، لأدركت نشازاً في الأداء، وإذا ما قارنت أداء صوت المدّ في القرآن الكريم مع أدائه خارج القرآن الكريم، فإنك ستجد فرقاً شاسعاً بين الأدائين، فالعربي لا يؤدي المدّ في كلامه العادي وإن توفرت العوامل اللفظية، في حين لا يستطيع وهو يؤدي القرآن إلا أن يحقق المدّ، مما يؤكد الأثر الدلالي لهذا الأداء في القرآن.

هذا الأمر دفعني للبحث في الدلالة الإيحائية لصوت المد في القرآن الكريم وسأبين ذلك بإذن الله تعالى من خلال مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة:

أما المقدمة فعرضت فيها لمسوّغات الدراسة وعرفّتُ في التمهيد المدّ وذكرت بعض المصطلحات المتعلقة به، وعرضت في المبحث

الأول للصوت والدلالة عند العلماء العرب، وجاء المبحث الثاني تحت عنوان: تعليل ظاهرة صوت المد، وذكرت فيه السبب المعنوي إضافة إلى السبب اللفظي، أما المبحث الثالث فجاء تحت عنوان: دلالة صوت المدّ في القراءات القرآنية، عرضت فيه لنماذج من أصوات المدّ وبينت الدلالة الممكنة الناتجة عن المدّ بدرجاته المختلفة من خلال السياق.

أما الخاتمة فقد أثبت فيها أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها الدراسة وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تمهيد: تعريف المدّ:

حروف المد هي: الألف ولا يكون قبلها إلا مفتوحاً، والواو التي قبلها ضمّة، والياء التي قبلها كسرة. "وتتعرض حروف المد للتقصير حتى تصير حركة، وتتعرض للتطويل حتى تصير ضعف طولها الأصلي أو أكثر"[١].

ويرى بعض علماء التجويد أن الألف أمكن حروف المد، ويرى بعضهم أن الواو أمكن ثم الياء ثم الألف[٢] . قال ابن الباذش (ت ٥٤٠هـ): "وأمكنهن في المد الألف ثم الياء ثم الواو"[٣] . وقال المرادي (ت ٧٤٩هـ): والأصل في حروف المد الألف؛ لأنها حرف مدّ ولأنها أوسع مخرجاً من الواو والياء، وأمكن حروف المد الألف ثم الياء ثم الواو، وهذا مذهب سيبويه"[٤]. ومن هنا فضّل بعض القراء الألف على الياء. والذي أخذ به أكثر الأئمة استواءُ الثلاثة في مقدار المدّ[٥] .

ولا شك أن حروف المدّ الثلاثة متفاوتة في سعة المخرج[٦] . ولكن هذا التفاوت لا يؤثر في كمية المدّ التي تلحق بكل حرف من حروف المد.

وتتعدد درجات المدّ تبعاً لعوامل صوتية وأخرى دلالية، وتختلف كمية المدّ باختلاف القراء، من هنا كانت عناية علماء التجويد بظاهرة المدّ أكثر من عنايتهم بظاهرة التقصير.

وقد عرّف المرادي المدّ بقوله: "هو تطويل صوت الحرف لإشباع مخرجه"[٧] وعرّفه الأزهري (ت ٨٧٠هـ) بقوله: "وأصل المدّ في اللغة الزيادة، يُقال: مددت الشيء إذا زدته، ومنه قوله تعالى: ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم﴾[١٢٥: آل عمران]. واصطلاحاً: عبارة عن إطالة الصوت بالحرف الممدود"[٨] .

وعرّفه القسطلاني (ت ٩٢٣هـ) بقوله: "المد عبارة عن زيادة المط في حروف المدّ على المد الطبيعي، وهو الذي لا تقوم ذات الحروف إلا به"[٩] .

وعرّفه طاش كبرى زاده (ت ٩٦٨هـ) بقوله: "هو طول زمان صوت الحرف"[١٠] .

وهذه التعريفات وإن اختلفت باللفظ فإنها متفقة في الدلالة فهي تجمع على أنّ المدّ إطالة صوت المدّ على ما فيه من مدّ طبيعي، فالمد ليس بحرف ولا بحركة، وكلّ زيادة في مدّ الصوت لا بدّ أن يكون لها أثر في تغيير

المعنى. والمدّ في علم القراءات نوعان: طبيعي وعرضـــي.

فالطبيعي: هو الذي لا تقوم ذات حروف المد دونه، وهو ما يُعرف عند القراء بالقصر.

والعرضي: هو الذي يعرض زيادة على الطبيعي لموجب يوجبه، وجعلوا له وأنواعاً كثيرة فمنه اللازم ومنه العارض للسكون ومنه المتصل والمنفصل ... وهذا هو منطلق الدراسة، حيث سيعرض البحث للدلالة الناتجة عن المدّ العرضي.

مصطلحات ذات علاقة بالمدّ:

ذكر علماء القــراءات مصطلحات عدّة تتصل بالمدّ، أهمها:

- **المط**: هو المد نفسه ولكن لغة ثانية فيه.
- **الليــن**: وهو ما يجري من الصوت في حروف المد ممزوجاً بالمد، ولا ينفصل أحداهما عن الآخر، وهو أجرى في الياء والواو إذا انفتح ما قبلهما أو إذا انكسر ما قبل الياء وانضم ما قبل الواو"[١١] .
- **القصر**: هو المد الطبيعي لحروف المد.
- **الإشباع**: هو إتمام الحكم المطلــوب من تضعيف الصيغة، "وهو عبارة عن أداء الحركات بصورة كاملة غير منقوصـــة ولا مختلسة"[١٢] .
- **التمكين**: هو الزيادة، ويعبّر به عن المدّ العرضي، يُقال: مكِّنْ، إذا أُريدت الزيادة[١٣].

المبحث الأول
الصوت والدلالة عند العلماء العرب

اهتم العلماء العرب بلغتهم، فبحثوا في نشأتها، فذهب بعضهم إلى أنّ "أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات، كدويّ الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيح الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفــرس، ونزيب الظبي، ونحو ذلك"[١٤]. من هنا ندرك أهمية الصوت في الدلالة وصولا إلى معرفة دلالة الصوت في القراءات القرآنية بعامّــة ومعرفة دلالة صوت المد فيها بخاصة. وقبل أن أشرع في بيان ذلك، أحببت الوقوف على آراء العلماء العرب المتقدمين والمحدثين في هذه المسألة.

- **آراء العلماء العرب المتقدمين:**

اهتم العلماء العرب المتقدمون بدراسة علاقة الصوت بمعناه، فقد عرض لها سيبويه في كتابــه، وابن جنّي في خصائصه، وابن فارس في مقاييسه، ولعلّ ابن جني كان أكثر المتقدمين اهتماما ببحث العلاقة بين الصوت ومدلوله، وهو أكثرهم تفصيلا لهذه المسألة، يقول: "اعلم أنّه لما كانت الألفاظ للمعاني أزمّة، وعليها أدلّة، وإليها موصلة، وعلى المراد منها مُحصّلة، عُنيت العرب بها فأولتها قدرا صالحا من تثقيفها وإصلاحها"[١٥]. ويرى عزمي طه السيد أنّ رأي ابن جني هذا ما هو إلا انعكاس للأفكار التي انطوت عليها "نظرية المحاكــاة

الطبيعية"[١٦] التي وضعها أفلاطون[١٧]، ولكن هـذا لا يعني بأن ابن جني نقل حرفيا عـن أفلاطون وإن التقى معه في أفكار كثيرة، فابن جني يصدر عن قريحة عربية أصيلة، لهـا خصوصيتها واستقلالها، علاوة على أنه طور ما جاء به أفلاطون وأضاف إليه، ويقر عزمي طه السيد نفسه بهذه الحقيقة في تعيبه على بحثـه، يقول: "ومع أننا لا نجد عند ابن جني أقوالا تعبّر عن جوهر نظرية المحاكاة الطبيعية التي قدمها أفلاطون، إلا أن ما قدمه ابن جني في مجال اللغة يفوق في تنوعه ودقته ما بحثه أفلاطون في هذه المحاورة"[١٨] .

وقد جمع السيوطي آراء المتقدمين في هذه المسألة في كتابه المزهر[١٩]. وعلّق عليها، حيـث عرض لآراء ابن جني، والكسائـي، والأصمعي، وابن دريد، والثعالبي، وعرض لدلالة أصوات الطبيعة، ودلالة أصوات الحروف، يقول: "فاوتت العرب في هذه الألفاظ المقترنة المتقاربة في المعاني؛ فجعلت الحرف الأضعف فيها ... لما هو أدنى وأقل وأخفّ عملا وصوتا؛ وجعلت الأقوى ... لما هو أقوى عملا وأعظم حسا، ومن ذلك المدّ والمطّ؛ فإن فعل المط أقوى؛ لأنه مدّ وزيادة جذب فتناسب الطاء التي هي أعلى من الدال"[٢٠] .

وخلاصة رأي العلماء العرب المتقدمين في مسألة العلاقة بين الصوت ودلالته تتمحور حول دلالة أصوات الطبيعة من حيوان ونبات وجماد، ودلالة أصوات الحروف العربية بين الجهر والهمس والشدة واللين ... الخ، ودلالة الصيغ والأوزان الصرفية، كالفَعَلان التي تدل على الحركة والاضطراب من مثل: الغليان، والغثيان، والمصادر الرباعية المضعّفة التي تدل على التكرير من مثل: الزعزعة، والقلقلة، والصلصلة.

- **آراء العلماء العرب المحدثين:**

ناقش عدد من العلماء العرب المحدثين مسألة العلاقة بين الأصوات ودلالتها، لكنهم لم يخرجوا عن آراء المتقدمين عموما؛ فأعادوا مقولة المتقدمين في حديثهم عن دلالة أصوات الطبيعة، ودلالة أصوات الحروف: كدلالة الحاء على السعة من مثل: السماح والمرح، ودلالة الغين على الخفاء من مثل: الغياب والغروب، ونجد مثل هذه الإشارات عند أفلاطون الذي يرى بأن "المحاكاة تبدأ من الحروف، ثم يشير إلى الدلالة التي تؤديها الحروف، فيرى مثلاً أن الراء يدل على الحركة كالارتجاف والركض، وأن الدال والتاء يدلان على الاستقرار والربط لمـا في نطقهما من إغلاق للسان وضغـط عليه"[٢١]، ولا شك في أن دلالة الحروف على الأشياء تكون نسبية فهي ليست مطّردة في جميع الحروف. وما تميّز به المحدثون أنهم كانوا أكثر إفصاحا وبيانا في مسألة القول بدلالة الأصوات، أهي ذاتية أم اصطلاحية؟ والمتأمل موقفَ المحدثين من هذه المسألة يجدهم منقسمين

في ثلاثة اتجاهات: الأول يرى بأنّ دلالة الأصوات كامنة في ذاتها، ذهب إلى ذلك أحمد فارس الشدياق في كتابه (الساق على الساق)، وصبحي الصالح في كتابه (دراسات في فقه اللغة)، ومحمد المبارك في كتابه (فقه اللغة وخصائص العربية)، وجرجي زيدان في كتابه (الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية)، وعباس العقاد في كتابه (أشتات مجتمعات في اللغة والأدب).

أما الاتجاه الثاني فيرى أصحابه بأن دلالة الصوت اصطلاحية، وأبرز من قال به عبده الراجحي في كتابه (فقه اللغة)، ومصطفى مندور في كتابه (اللغة بين العقل والمغامرة)، ومحمود فهمي حجازي في كتابه (مدخل إلى علم اللغة. ولعلّ هؤلاء تأثروا بآراء علماء اللغة الغربيين الذين ينكرون العلاقة بين الصوت ودلالته.

وأما الاتجاه الثالث فقد وقف أصحابه موقفا متوسطا بين الاتجاهين السابقين، حيث قالوا بأن من الألفاظ ما أُخذت دلالتُه من ذاته كأصوات الطبيعة، ومنها ما أخذت دلالته بالتواضع والاصطلاح بين الناس أو بوضع توقيفي من الله تعالى الذي علّم آدم الأسماء كلّها، ومنها ما يحدده الاستعمال عن طريق تدوينه في المعاجم كما يرى تمام حسان، ويمثل هذا الاتجاه كل من إبراهيم أنيس، وتمام حسان، وعبد الصبور شاهين، ولعل هؤلاء في رأيهم الثاني نظروا إلى دلالة الأصوات وفق ما آلت إليه اللغة واستقرت لا بالنظر إلى أصل النشأة.

وقد ظهرت في الآونة الأخيرة محاولات جادة لبحث العلاقة بين الصوت ودلالته من خلال التطبيق على القراءات القرآنية، وأحكام التلاوة والتجويد أذكر منها ما قدمه الدكتور سمير استيتية[٢٢] والدكتور عودة أبو عودة[٢٣].

وفي العموم لا يمكن لنا إنكار العلاقة بين الصوت ودلالته في اللغة العربية؛ ذلك أن الاستعمال العربي يدل عليه، كما أن القراءات القرآنية تؤكد هذه العلاقة، أضف إلى ذلك أن آراء العديد من علماء العربية قديما وحديثا يقرون بهذه العلاقة.

وهذا ينقلني إلى الحديث عن تعليل ظاهرة المدّ وعلاقتها بالدلالة القرآنية.

المبحث الثاني
تعليل ظاهرة المدّ

هل المدّ يعلل؟

حاول علماء العربية وعلماء التجويد تفسير ظاهرة المد وتعليلها، وذلك من خلال الكشف عن الأسباب الداعية للمدّ، فهذا ابن جني يقول: "ألا ترى أن الألف والياء والواو اللواتي هنّ حروف المد توامّ كوامل قد تجدهنّ في بعض الأحيان أطول وأتم منهن في بعض ... فإذا وقعت بعدهنّ الهمزة أو الحرف المدغم ازددن طولاً وامتداداً"[٢٤]. وقد ردّ علماء التجويد ما ذكره ابن جني من أسباب المد وفصلوا القول فيها مع التقسيم والتمثيل فهذا

أبو عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ) يتحدث عن الألف فيقول: "وإن لقي همزة أو حرفاً ساكناً، مُظهراً أو مُدغماً زيد في تمكينه وإشباع مدّه. بياناً للهمزة لخفائها، وليتميز بذلك الساكنان أحدهما من الآخر ولا يجتمعا"[٢٥].

أما عبد الوهاب القرطبي فيقول: "أما المدّ فهو حكم يجب لحروف المد واللين إذا كان عقبها همزة أو ساكن مدغم أو مظهر كالسماء وقائل وكالضالين والصاخّة، وذلك إذا وقفت عليها"[٢٦].

وقال المرادي: "وسبب المد أحد شيئين، وهما: الهمزة والسكون"[٢٧]. ولم يقف علماء التجويد عند الأسباب اللفظية المادية لتعليل ظاهرة المدّ، بل تجاوزها بعضهم إلى الأسباب المعنوية فقالوا: "السبب المقتضى لزيادة المد قسمان: معنوي ولفظي، فالمعنوي هو قصد المبالغة في النفي في مثل (لا ريب فيه) ومنه مد التعظيم في نحو (لا إله إلا الله). واللفظي هو ما مدّ من أجل الهمزة والسكون"[٢٨].

ومع أن علماء التجويد أجمعوا على الأسباب اللفظية في تعليل ظاهرة المد إلا أنهم لم يجمعوا على السبب المعنوي فهو ضعيف عندهم إن لم يعضده سبب آخر كدلالة السياق مثلاً كما في (لا إله إلا الله).

وسنحاول في هذه الدراسة أن نكشف بعون الله تعالى عن قوّة السبب المعنوي/ الدلالي للمد.

يقول أبو عبيد في تعليله قراءتَه لـ (طعامُ مسكينٍ) بالإفراد، في قوله تعالى: ﴿**وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ**﴾[١٨٤: البقرة]. يقول: "فبينت أنّ لكلّ يومٍ إطعامَ واحدٍ، فالواحد مترجم عن الجميع، وليس الجميع بمترجم عن واحد"[٢٩]. نستدل من هذا القول على أنّ القراءات بمجموعها تعلل، ونتخذ منه مدخلاً لتعليل ظاهرة المدّ في القراءات القرآنية.

ويقول ابن عاشور في مقدمة التحرير والتنوير: "أرى أنّ للقراءات حالتين: إحداهما لا تعلّق لها بالتفسير بحال، والثانية لها تعلق به من جهات متفاوته"[٣٠]. وعندما تحدّث عن الحالة الثانية ربطها بدلالة السياق. قال: "فهي اختلاف القراء في حروف الكلمات مثل: (مالك يوم الدين)، و(ملك يوم الدين)، و(ننشرها) و(ننشزها) ... وكذلك اختلاف الحركات الذي يختلف معه معنى الفعل كقوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ**﴾ [٥٧: الزخرف] قرأ نافع بضم الصاد وقرأ حمزة بكسر الصاد، فالأولى بمعنى يصدون غيرهم عن الإيمان والثانية بمعنى صدودهم حاصل في أنفسهم، وكلا المعنيين حاصل منهم"[٣١].

وهذا ما يتعلق بالحروف والحركات، وستحاول هذه الدراسة بعون الله أن تضيف عاملاً ثالثاً في أثر القراءات في الدلالة وهو العامل الصوتي منطلقة من صوت المد وأثره في الدلالة.

ذلك أن اختلاف القراء في أداء صوت المد يؤدي إلى اختلاف في الدلالة ويقدّم تعدداً في المعنى "فاختلاف القراء في اللفظ الواحد من القرآن قد يكون معه اختلاف في المعنى"(٣٢).

وخلاصة رأي علماء العربية وعلماء التجويد في تعليل ظاهرة المدّ تتمحور حول العامل اللفظي/ المادي. ولا يعدو ذلك أحد سببين عندهم: الأول: قبل الهمزة لبيانها، والثاني: قبل المشدد للفصل بين الساكنين.

أما في الدرس الصوتي الحديث فلم تلق ظاهرة المدّ العناية الكافية باستثناء ما عرض له الدكتور إبراهيم أنيس والدكتور عبد الصبور شاهين(٣٣)، وهو تعليل مبني على الملاحظة الذاتية، وقد تبعهما عدد من الأساتذة الجامعيين المجتهدين في هذا المجال من أمثال د. سمير استيتية ود. عودة أبو عودة وغيرهما.

يقول الدكتور إبراهيم أنيس: "أما السر في هذه الإطالة فهو –كما يبدو لي- الحرص على صوت اللين وطوله لئلا يتأثر بمجاورة الهمزة أو الإدغام لأن الجمع بين صوت اللين والهمزة كالجمع بين متناقضين"(٣٤). وهو تعليل لا يختلف عن تعليل القدماء القائم على السبب اللفظي.

ومع تقدّم العلم وتطوّرعلم التفسير وقعت على الدارسين مسؤولية أكبر في الكشف عن مكنونات الكتاب العظيم واستظهار كنوزه وبيان أوجه إعجازه، يقول الفخر الرازي: "وقد ثبت في أصول الفقه أنّ المتقدمين إذا ذكروا وجها من تفسير الآية فذلك لا يمنع المتأخرين من استخراج وجه آخر في تفسيرها وإلا لصارت الدقائق التي يستنبطها المتأخرون في التفسير مردودة، وذلك لا يقوله إلا مقلّد خُلْف"(٣٥) .

المبحث الثالث
دلالة صوت المد في القراءات القرآنية

إن المصغي سمعَه إلى قارئ يقرأ القرآن يجد أن أحكام المدّ في القراءة بُنيت على أساس صوتي صحيح، ولو أنك سمعت قارئاً لا يؤدي المدّ عند استحقاقه أو يمدّ في غير استحقاق لأدركت نشازاً في الأداء؛ فقراءة المد تثير الانتباه، وتحمل دلالة يعيها السامع كما وعاها القارئ، من ذلك تفخيم القارئ في المدّ في الكلمات التي تدل على الرهبة كالصّاخة مثلا، أما إذا جاء المدّ في كلمة تدل على الرحمة فإنك تجد القارئ يرقق في أداء المد كقراءة قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**﴾[١: القدر]. وإذا ما قارنا أداء صوت المد في القرآن الكريم مع أدائه خارج القرآن فإننا لا نجد العربيَّ يمدّ في كلامه إذا التقى حرف مدّ مع همزة أو سكون بل ونستغرب ذلك منه، أما في القرآن فالمستغرب أن لا يؤدَى المدُّ عند استحقاقه.

يقول مكي بن أبي طالب: "والهمزة إذا وقعت بعد حرف المد واللين لك أن تدع إشباع المد في الكلام، فتقول: صائم وقائم بغير إشباع ... فأما في القرآن فلا بد من إشباع المد إتباعاً

للرواية"[٣٦]. فهل العلّة تكمن في اتباع الرواية فقط؟ أم أن هناك عاملاً دلالياً تقتضيه قدسيةُ القرآن ومظاهرُ إتقانه والعنايةُ به وإيفاءُ حروفه أحكامَها الخاصةَ بها.

وبيان ذلك على النحو الآتي:

إن كميّة المد غير ثابتة عند القراء جميعاً، وإن كانت هناك قوانين تحكم ظاهرة المد إلا أن هذه القوانين ليست ملزمة على سبيل الوجوب، والرسول ﷺ عندما أمر القرّاء بذلك لم يكن أمر إيجاب وفرض، وإنما كان أمر إباحة ورخصة"[٣٧]. ومن هنا تجد القرّاء يتفاوتون في كمية المد بين الإشباع والقصر وفي عدد حركات المدّ أيضاً، وهذا التفاوت قد يقوم على سبب دلالي في نفس القارئ، كما أنّ "المدَّ الصوتيَّ لبعض أحرف الكلمات القرآنية مدّا زائدا عن المد الأصلي الطبيعي حين التلاوة يدلّ على تفخيم هذه الكلمات وزيادة معناها"[٣٨]؛ ذلك أنّ كلّ زيادة في المبنى تستدعي زيادة في المعنى. وقد عدّ السيوطي في الإتقان المعنى سبباً من أسباب المد[٣٩] . ويمكن أن نقسم الدلالات التي تتولد من اختلاف القراء في أداء صوت المد إلى الأقسام التالية:

١. **دلالة المبالغة**: كما في قوله: ﴿**لاَ رَيْبَ**﴾ [٢: البقرة]، وقوله: ﴿**لاَّ شِيَةَ فِيهَا**﴾[٧١: البقرة]، فصوت المد في لا النافية للجنس هو مدّ طبيعي لا يتجاوز حركتين إلا أنّ حمزة يمدّ فيها بأربع حركات وذلك للمبالغة في النفي "وهذا قوي عند العرب ويسمونه المعنوي"[٤٠]. وقد تميز ورش عن بقية القراء في المبالغة في المد، فهو يمد حروف اللين التي تخالف حركةُ ما قبلها جنسَها بمدها أربع حركات وحقها حركتان مثل: (خَوف)، و(قرَيش)، (السَوء)، (شَيء)، ويمد ما حقه أربع حركات ست حركات، وهكذا.

٢. **دلالة الاستغراق**: ونجد ذلك في المد العارض للسكون وقد اختلف القراء في مدّه بين حركتين وأربع حركات وست حركات ولكن الغالب منهم فضل الإطالة في المدّ إلى ست حركات للاستغراق في الدلالة، ونجد ذلك في قوله تعالى: (نستعين)، و(يعلمون)، و(بعذاب)، فمن يؤدي المد في هذه الكلمات في ست حركات كما في (نستعين) إنما أراد الاستغراق في الاستعانة بالله إلى آخر حدّ منها وكذلك الاستغراق في العلم حتى استيعابه، يقول السيوطي: و"المدّات في أصول الأفعال أُحدثت لمعانٍ"[٤١]، والاستغراق بالعذاب إلى منتهاه، ومنه الاستغراق في النفي، كقوله تعالى: ﴿**مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ**﴾[٢٢: إبراهيم] فقد بلغت البراءة منتهاها، ومنها قوله تعالى: ﴿**وَلاَ الضَّالِّينَ**﴾[٧: الفاتحة]. فقد بلغوا منتهاهم في الضلال والغي، ومن الاستغراق في النفي دلال المد في قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ**﴾[١-٢: الكافرون]،

فالمد في نفي عبادة الكافرين فيه استغراق واستمرارية لا تنقطع.

٣. **دلالة الترهيب**: ونجد ذلك في كلمات: الحاقة، والصاخة، والطامة، فمع أنها تتدرج تحت نوع المد اللازم الذي يلزم ست حركات عند جميع القراء إلا أنها تلتزم دلالة واحدة عندهم، فوقع هذه الكلمات على النفس فيه الرهبة والإنذار والوعيد، ومما يزيد من هذه الرهبة ويجعل لها أثراً في النفوس صوت المد الذي يستمر إلى آخر نَفَسٍ في النَفْسِ ولو قرأنا هذه الكلمات بدون مدّ أو خففنا من كمية المدّ فيها لما وجدنا تلك الرهبة التي توافق المدّ المستطيل فيها. ونجد المد متآلفاً في الدلالة على الرهبة مع حروف الشدّة التي اشتملت عليها الكلمات المذكورة من طاء وصاد وقاف وحاء ومما يؤكد دلالة الرهبة التي تحملها هذه الكلمات السياق القرآني الذي جاءت فيه (يوم يفرّ المرء من أخيه، وأمه وأبيه) فهل هناك أكثر رهبة من هذا اليوم؟

٤. **دلالة الترغيب**: ومثالها قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾[١: الكوثر]، فالإطالة في كميّة هنا تحقق البهجة في النفس وتبعث على الرجاء وترغب في تحصيل الكوثر ويدلّ على ذلك ما جاء بعد المدّ من طلب وهو الصلاة والنحر، وفيها كذلك دلالة التعظيم.

٥. **دلالة التعظيم**[٤٢]: ومنها قوله تعالى: ﴿**لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**﴾[١٦٣: البقرة]. وقوله (لا إله إلا الله)، وقوله: (لا إله إلا أنت)، فإطالة المدّ في (لا) النافية للجنس تحمل دلالة التعظيم لله تعالى المتفرد بالألوهية، ويقول ابن مهران في كتاب المدّات: "إنما سُمّي بذلك لأنه طلب للمبالغة في نفي الإلهية سوى الله تعالى)[٤٣]. ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**﴾ [١: القدر]. فكمية المدّ الطويلة في الآية تدل على عظمة المنزل ويعضد ذلك صيغة الجمع في الضمير (إنا) . ومن ذلك دلالة المد في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾[١: الكوثر]، فالمد يدل على عظمة المُعطي، في حين لا نجد مدا في قوله تعالى: ﴿**فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً**﴾[٣٤: الكهف]؛ ذلك أنّ ضمير المتكلم المفرد (أنا) لا يتضمن دلالة التعظيم فهو عائد على بشر ضعيف مخلوق، خلقه العظيم جلّت قدرته.

٦. **دلالة الاستغاثة**[٤٤]: ومنها قوله تعالى: ﴿**قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ**﴾[١١٤: المائدة]. فنبي الله عيسى يستغيث ربه حيث افتتح كلامه بقوله (اللهم) ثمّ بين الغاية من هذه المائدة فأرادها أن تكون عيداً لهم وأن تكون معجزة كذلك، وجاء المد في قوله (ربنا) ليعبر عن هذه الحاجة بطلب الغوث من الله، أما المد في كلمة (مائدة) فيدل على المبالغة التي تُظهر عِظم هذه المعجزة، فهي مائدة تستطيل باستطالة كمية المد في الكلمة،

وتجمع شتّى أصناف الطعام.

٧. **دلالة الاستمرارية**[٤٥]: ومنها قوله تعالى: ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ**﴾ [٢٩: الزمر]، لتبرز كلمة متشاكسون في المد وهي تعبر لغة عن المخاصمة والعناد والجدل في أخذ ورد لا يستقران، مما يعطي معنى النزاع المستمر والجدل القائم. ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿**فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ**﴾ [٩٤: الشعراء] تدل على الاستمرار في الغيّ والضلال. ومنها أيضا دلالة المد في قوله تعالى: ﴿**لِلطَّائِفِينَ**﴾[١٢٥: البقرة]، حيث الطواف مستمر حتى قيام الساعة ليلا ونهارا صيفا وشتاء. ومنها أيضا قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً**﴾ [١٢: يونس]، فالداعي يستمر بالقيام رجاء لرحمة ربه، ومن الاستمرارية أيضا قوله تعالى في سورة الكهف ﴿**وَهُوَ يُحَاوِرُهُ**﴾، فالحوار استمرّ طويلا بين الرجلين. ومن الاستمرارية ما يدل على الاستمرار في الزمن وهو ما يُعبّر به عن طول المدّة الزمنية المستغرقة في أداء الفعل لا الفعل نفسه ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ**﴾[١٦: يوسف]، وقوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ**﴾[٧٠: هود]. فزمان مجيئهم كان طويلاً ورؤية إبراهيم لأيدي الملائكة كانت طويلة أيضاً.

٨. **دلالة العموم والشمولية**: من ذلك المدّ الحاصل في كلمة (دابة) في قوله تعالى: ﴿**وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا**﴾[٦: هود]، فتجريد الكلمة من التعريف وموقعها بعد النفي يعطيها صفة العموم، ومما يزيد في دلالة العموم والشمولية ذلك المدّ المشبع، الذي يدل على الكلية المطلقة فتشمل الخلائق كلها بأصنافها وأجناسها المرئية وغير المرئية المدركة وغير المدركة. ومن ذلك أيضاً (المدّ الحاصل في كلمة (كافة) في قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً**﴾[٢٨: سبأ]. فكمية المدّ المتحققة في كلمة (كافة) تحمل دلالة العموم والشمولية، وتدلّ على أن هذا الرسول ﷺ لم يختص بزمن ما ولم يبعث لطبقة خاصة أو أمة دون أمة أخرى فقد تجاوزت رسالته حدود الزمان والمكان لتشمل الإنسانية كافة وتعمّ العالم أجمع، ومما يؤكد دلالة العموم في هذه الكلمة تجريدها من التعريف وما سبقها من نفي.

الخاتمة:

توصلت هذه الدراسة إلى جملة النتائج، أهمها:

- أن الألف والواو والياء تسمى حروف المد إذا كانت ساكنة وحركة ما قبلها من جنسها والألف دائماً كذلك، أما الياء والواو فتتبدل أحوالهما.
- أن الألف أمكن في المد من الواو والياء.

- أن أحكام التجويد لم تكن قانوناً صارماً أو فرضاً واجباً وإنما كان أمر الرسول ﷺ، القراء بذلك على الإباحة والرخصة.
- أن المد يُعلل بعلل معنوية ولا يقتصر على العلة اللفظية/ الهمزة والسكون.
- أن علم القراءات من متممات علم التفسير، ومصدر من مصادر الدلالة في القرآن الكريم. لذا يُستدلُّ بالقراءات على التفسير والمعنى.
- لاحظ المتقدمون من القرّاء وعلماء التفسير أنّ عامل الدلالة والمعنى يعدّان من أسباب المد بعد الأخذ بالسبب اللفظي.
- أنّ دلالة المد ترتبط بدلالة السياق الذي جاءت فيه.
- أن الدلالة التي يحملها المدّ لا تكون إلا في المد العرضي أما الطبيعي فلا دلالة فيه، وأن الدلالة الكامنة في ذات الأصوات إنما هي نسبية وليست مطرّدة في جميع الحروف.
- أن أحكام التجويد بحاجة إلى عناية الدارسين في الجانب الدلالي، يدل على ذلك اختلاف القراء في كمية المدّ.
- أن حظَّ دلالة صوت المد في دراسات المحدثين قليل جداً ولم يخرج كثير من دراساتهم عن الرؤية التقليدية.
- توصي الدراسة بإيلاء ظاهرة الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم عناية في الأبحاث العلمية والرسائل الجامعية.

الهوامش:

(١) الحمد، غانم قدوري، **الدراسات الصوتية عند علماء التجويد**، ط١، بغداد، ١٩٨٦م، ص٥٢١.

(٢) **المصدر نفسه**، ص٥٢٤.

(٣) ابن الباذش، أبو جعفر أحمد بن علي (ت ٥٤٠)، **الإقناع في القراءات السبع**، ط١، تحقيق: عبد الحميد قطامش، مركز إحياء التراث، جامعة أم القرى، منشورات دار الفكر، دمشق، ١٤٠٢هـ، ج١، ص٤٦٨.

(٤) المرادي، بدر الدين أبو محمد الحسن بن قاسم بن عبد الله، المعروف بابن أم قاسم (ت ٧٤٩)، **المفيد في شرح عمدة المجيد في علم التجويد**ن ص١٠٤، نقلا عن: الدراسات الصوتية لغانم الحمد، ص٥٢٥.

(٥) الحمد، غانم قدوري، **الدراسات الصوتية**، سابق، ص٥٢٥.

(٦) ابن جني، أبو الفتح عثمان (ت ٣٩٢هـ)، **سر صناعة الأعراب**، تحقيق: محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠، ج١، ص٨.

(٧) المرادي، **المفيد**، سابق، ص١٠٤.

(٨) عبد الدائم الأزهري، (ت ٨٧٠هـ)، **الطرازات المعلمة في شرح المقدمة**، ص٥٠، نقلاً عن: الدراسات الصوتية لغانم الحمد، ص٥٢٢.

(٩) القسطلاني، **اللآلئ السنيّة**، ص٢٦، نقلا عن: الدراسات الصوتية لغانم الحمد، ص٥٢٣.

(١٠) طاش كبرى زاده، **شرح المقدمة الجزرية**، ص٣١، نقلاً عن: الدراسات الصوتية لغانم الحمد، ص٥٢٣.

(١١) غانم الحمد، **الدراسات الصوتية**، سابق، ص٥٢٤.

(١٢) ابن الطحان، أبو الإصبغ الإشبيلي، (ت بعد٥٦٠هـ)، **مرشد القارئ إلى تحقيق معالم المقارئ**، ص١٣٣، نقلا عن: الدراسات الصوتية لغانم الحمد، ص٥٢٤.

(١٣) غانم الحمد، **الدراسات الصوتية**، سابق، ص٥٢٤.

(١٤) السيوطي، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، ج١، ص١٥، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى وآخرين، ط٣، دار التراث، القاهرة.

(١٥) ابن جني، أبو الفتح عثمان (ت ٣٩٢هـ)، **الخصائص**، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١، ج١، ص٣١٧.

(١٦) هي نظرية يفسّر بها أفلاطون أصل وضع الأسماء وطريقة وضعها. ولتأكيد فكرتها يلجأ أفلاطون إلى المماثلة بين فعل إطلاق الأسماء على الأشياء، كالقطع والثقب والنسج، ثم يخلص أفلاطون إلى أنّ الأسماء الأولية هي تمثيل ومحاكاة للأشياء. ينظر:عزمي طه، "نظرية المحاكاة الطبيعية عند أفلاطون وانعكاساتها عند الفارابي وابن جني" للدكتور عزمي طه السيد أحمد، **بحث منشور في المجلة العربية للعلوم الإنسانية**، جامعة الكويت، ٢٠٠٠م، ع٧١، ص٥٧-٦٣.

(١٧) انظر تفصيل ذلك في: "نظرية المحاكاة الطبيعية عند أفلاطون وانعكاساتها عند الفارابي وابن جني" للدكتور عزمي طه السيد أحمد: **بحث منشور في المجلة العربية للعلوم الإنسانية**، جامعة الكويت، ٢٠٠٠، عدد٧١، ص٧١.

(١٨) عزمي طه السيد أحمد: **نظرية المحاكاة الطبيعية عند أفلاطون وانعكاساتها عند الفارابي وابن جني**، سابق، ص٧٧.

(١٩) ينظر: **المزهر** للسيوطي، سابق، ج١، ص١٤-٢٤.

(٢٠) ينظر: **المزهر** للسيوطي، سابق، ج١، ص٥٣.

(٢١) ينظر: عزمي طه السيد أحمد: **نظرية المحاكاة الطبيعية عند أفلاطون وانعكاساتها عند الفارابي وابن جني** سابق، ص٦٤-٦٥.

(٢٢) للدكتور سمير استيتية دراسات عدّة في هذا المجال أهمها: كتاب: الأصوات اللغوية، صدر عن دار وائل، عمان، ٢٠٠٤م. وكتاب: القراءات القرآنية بين العربية والأصوات اللغوية، صدر عن مكتبة عالم الكتب، إربد، ٢٠٠٥. وله آراء مبثوثة في كتابي: منازل الرؤيا، ورياض القرآن، وهما كتابان متخصصان بعلم التفسير.

(٢٣) للدكتور عودة أبو عودة دراسات عدّة في هذا المجال أهمها: بحث بعنوان: الترتيل القرآني أول درس صوتي في تاريخ اللغات، مقبول للنشر في مجلة المنارة

التي تصدرها جامعة آل البيت. بحث بعنوان: "البيان القرآني مفهومه ووسائله"، **مجلة إسلامية المعرفة**، السنة الرابعة عشرة، العدد٥٦. بحث بعنوان: "التشريع والإعجاز في التركيب القرآني"، **مجلة الزرقاء للبحوث والدراسات**، مج٦، ع٧، ٢٠٠٤م.

(٢٤) ابن جني، **سر صناعة الإعراب**، ١/١٩-٢٠.

(٢٥) أبو عمرو الداني، عثمان بن سعيد (ت:٤٤٤هـ): **التحديد في الإتقان والتجويد**، تحقيق: غانم قدوري الحمد، دار عمار، الأردن، ط١، ٢٠٠٠م، ص٢٤. وانظر: غانم الحمد، ص٥٢٦.

(٢٦) القرطبي، أبو القاسم عبد الوهاب بن محمد، (ت ٤٦٢هـ)، **الموضّح في التجويد**، تحقيق: غانم قدوري الحمد، دار عمار، الأردن، ط١، ٢٠٠٠م، ص١٦٦. وانظر: غانم الحمد، ص٥٢٦.

(٢٧) المفيد، ص١٠٤. وانظر: غانم الحمد، ص٥٢٦.

(٢٨) ابن الجزري، أبو الخير محمد بن محمد، (ت ٨٣٣هـ)، **النشر في القراءات العشر**، المكتبة التجارية، مصر، ج١، ص٣٣٤. وينظر: الطبلاوي، ناصر الدين محمد بن سالم (ت ٩٦٦)، **مرشدة المشتغلين في أحكام النون الساكنة والتنوين**، تحقيق: محيي الدين هلال سرحان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠٠٢م، ص١٠.

(٢٩) القرطبي: **الجامع لأحكام القرآن الكريم**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م، ج٢، ص١٩٠.

(٣٠) ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، الدار التونسية للنشر، ج١، ص٥١.

(٣١) **نفسه**، ج١، ص٥٥.

(٣٢) **نفسه**، ج١، ص٥٥.

(٣٣) في كتابه: **أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي**، مكتبة الخانجي، ١٩٨٧م.

(٣٤) إبراهيم أنيس، **الأصوات اللغوية**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧١م، ص١٥٨-١٦٠.

(٣٥) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١، ص٢٩.

(٣٦) مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ)، **الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها**، تحقيق: محيي الدين رمضان، منشورات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٧٤، ج١، ص٦٨.

(٣٧) الأبياري، **الموسوعة القرآنية**، مؤسسة جبل العرب، ١٩٨٤م، ج١، ص٣٧٠.

(٣٨) محمد شملول، **تأملات في إعجاز الرسم القرآني وإعجاز التلاوة والبيان**، ص٢١٤.

(٣٩) السيوطي، **الإتقان**، دار مصر، القاهرة، ص١٣٢.

(٤٠) محمد أحمد بن شيخنا، **الموسوعة على البحث المفيد في التجويد**، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م.

(٤١) السيوطي، **الإتقان**، ص١٣٤.

(٤٢) السيوطي، **الإتقان**، سابق، ص١٣٣.

(٤٣) السيوطي، **الإتقان**، ص١٣٣.

(٤٤) السيوطي، **الإتقان**، ص١٣٣.

(٤٥) محمد حسين علي، **الصوت اللغوي في القرآن**، مقال منشور على الإنترنت موقع (قوقل) بتاريخ: ٢٠٠٨/٨/٢٠.